

جماليات الفن المعماري المرابطي بالجزائر من خلال الدراسة التنميطية للمساجد

د. صبرينة دحماني

قسم علم الآثار / جامعة - تلمسان -

مقدمة:

قد كان للوحدة السياسية التي حققها المرابطون بين الأندلس والمغرب أثرا فعالا على الحضارة إذ تمت عملية المزج والانصهار بين الحضارتين المغربية والأندلسية من خلال جلب المهندسين والصناع من الأندلس معتمدين عليهم في إقامة منشآتهم العمرانية كالقصور والمساجد وفي نفس الوقت أدخلوا إلى الأندلس بعض مظاهر الحضارة المغربية التي تتعلق بفن العمارة والبناء والتحصين، مما يدل على إستفادتهم من الحضارة المتواجدة وتفاعلهم معها وأخذهم قسطا وافرا منها مع محافظتهم على طابعهم الصحراوي كما قد حذوا حذو أسلافهم العرب في العناية بفن العمارة وأبدعوا فيها أيما إبداع، حيث تذكر بعض المصادر التاريخية أن الفن المعماري قبل المرابطين بالمغرب إمتاز بالطابع البربري البيزنطي، لكنه بقدوم المرابطين وضمهم الأندلس إلى المغرب إمتزج هذا الفن بالفن الأندلسي المتميز، وأنتج فنا خليطا بين الطابع المغربي والأندلسي العربي ليظهر هذا المزج في جل المباني الأثرية بالبلاط، وكان أول من بدأ عملية المزج يوسف بن تاشفين الذي أحضر أهم الصناع فأدخل بذلك عنصرا جديدا في الفن البربري ليتركز بذلك المزيج المغربي الأندلسي في الحضارة المرابطية، ففتح المرابطون أبواب المغرب على مصراعيه أمام الحضارة الأندلسية لتتدفق التأثيرات الأندلسية فبدأت تظهر بالمدن المغربية، لتتجلى روائع الفن المغربي الأندلسي لهذا العصر في الأبنية، خاصة الدينية بالجزائر كالجامع الكبير بتلمسان والجامع الكبير بندرومة والجامع الكبير بالجزائر العاصمة.

أ- التعريف بالمساجد المرابطية وتحديد مواقعها

1- الجامع الكبير بتلمسان:

-الجانب التاريخي: أهم ما يميز الجامع الكبير هو توفره على جميع المرافق المعروفة في المساجد، فقد أنجز من دون نقص وهذا يعود للفترات التاريخية التي تعاقبت عليه وأضيفت له، منها:

العهد المرابطي: حيث كان الإنتاج الثقافي والديني من بين أهم ما تميزت به الحضارات المرابطية الذي تجسد في بناء المساجد، أما بالنسبة للجامع الكبير بتلمسان فقد أثار تاريخ إنشائه جدلا كبيرا بين الباحثين بسبب الغموض الذي يكتنف تاريخ بعض عناصره المعمارية، مع عدم وجود الكتابات التأسيسية التي يستند عليها لتحديد الفترة التي أنشئ فيها الجامع، ففي الوقت الذي أكد فيه معظم الباحثين أن تاريخ تشييده يرجع إلى عهد علي بن يوسف بن تاشفين، إنطلاقا من التاريخ الذي ورد ذكره في النقوش التأسيسية الموجود بالمحراب والتي غفل عنها الموحدون الذين خلفوا المرابطين أثناء محو إسم الأمير الذي أمر ببناء المسجد الجامع الكبير، من الكتابة الموجودة أمام المحراب والتي نصها كالتالي: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم، هذا ما أمر

بعملها الأمير الآجل... أيده الله وأعزه ونصره وأدام دولته... وكان إتمامه على يد الفقيه الآجل القاضي، الأوصل أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن علي آدام الله عزهم فتم في شهر جمادى الآخرة عام ثلاثين وخمس مائة». وفي هذا يقول بروسلا ر أن أول ما يلفت الإنتباه عند قراءة ما كتب، إسم الأمير المؤسس الذي حذف بالمطرقة وآثار ذلك موجود بين كلمتي « الآجل » و «و أيده الله» بمساحة حوالي 50سم، فمرد ذلك أن الموحد عبد المؤمن أراد ان يحذف ذكرى المرابطين من على مسجد جامع تلمسان⁽¹⁾

إلّا ان جورج مارسي قد خالفهم في هذا حيث رى أن الجامع أسس في عهد يوسف بن تاشفين مستندا في ذلك على بعض الأدلة إذ يقول : أن يوسف بن تاشفين كان شديد الحرص على بناء المساجد فكان كلما مرّ على حي لا بد وأن يجد فيه مسجدا أو يوصي ببناءه⁽²⁾، كما يقول أيضا : كيف تفسر أن تظل مدينة تاققرات مدة نصف قرن من الزمن دون مسجد لأداء الشعائر الدينية ؟ وكيف يتغاضى يوسف بن تاشفين عن بناء مسجد جامع إذ كان دخوله الجزائر سنة 475هـ/1096م.

أقرن بناء مسجد جامع بها ويذهب للقول أن تاريخ 530 هـ/1135م يحدد فترة الإضافات والتعديلات التي شهدها الجامع⁽³⁾، فقد شيد الجامع مع بداية القرن 6 هـ/ 12م ليستكمل بناءه في 530هـ/1135م، وبالتالي فقد عرف الجامع تعديلات في العهد الموحد لكنها لم تمس بتخطيط عمارته وإنما بعض من ملاحقه، كالبابين الذين يكتنفان واجهة المحراب الاول على يمينه والذي يؤدي إلى الغرفة الخاصة بالمنبر، والثاني على يساره المؤدي إلى الخلوة إضافة إلى جدار الصحن الجانبي والأبواب الثلاثة التي تفتح بالجدار الجنوبي للجامع والتي لها نظائرها في كل من جامعي تنمل والكتيبة⁽⁴⁾.

أما في العهد الزياني، الذي دام مدة ثلاثة قرون تقريبا (13-16م)، أين بقي على عرش تلمسان يحيي يغمرا سن مدة 48 سنة وبضعة أشهر، هذا الذي عرف بعدم طباعة إسمه على أعماله، الأمر الذي صعب تحديد الإضافات التي ألحقت بالجامع في عهده، رغم ذلك تمكن ابن خلدون والتنسي من تحديدها والإشارة إليها كما أكدها أيضا جورج مارسي، والتي تتمثل في المجنبة الغربية من الصحن (البلاطين)، وذلك بسبب إزدياد عدد المصلين، كما يبدو هنا أن يغمرا سن لم يستطع توسيع بيت الصلاة من الجهة الغربية بسبب القصر القديم المحاذي لها، إذ عمل على تقليص طول الصحن ليصبح مربع الشكل⁽⁵⁾، و نجده قد أضاف المئذنة حسب المؤرخين وهذه التي تشبه مئذنة أقادير من ناحية الشكل.

إلى جانب إضافات أخرى تعود إلى فترة حكم أبي حمو موسى الثاني منها، خزانة كتب أهداها للجامع حسب الكتابة المنقوشة على اللوحة الخشبية يمين المحراب والتي تحمل إسمه وتاريخ الإنهاء من الإنشاء (760خ/ 1359م)، ومكتبة⁽⁶⁾ يعود تاريخها إلى عهد الأمير أبو زيان بن أبي حمو الثاني⁽⁷⁾ (797-802هـ/ 1399-1394م). وكذا ضريح الشيخ محمد بن مرزوق⁽⁸⁾ في الركن الجنوبي من بيت الصلاة، وبهذا نجد أن الإضافات الزيانية قد إنحصرت بالقسم الشمالي من بيت الصلاة مع القبة والمئذنة وغيرها التي تعود لفترات مجهولة.

2 جامع الكبير بندرومة:

- الجانب التاريخي: إختلفت الآراء حول تاريخ جامع ندرومة، كما إختلفت حول مشيده، وقد

إعتمدت كل الأراء على دراسة كتابة لوحة من خشب الأرز كانت جزءا من منبر جامع ندرومة وبالظبط الجزء الذي يشكل متكأ لظهر الإمام بجلسته في أعلى المنبر، واللوحة على هيئة عقد نصف دائري إرتفاعها 1متر و عرضها 0.72م، وتتألف من 12 سطرا جلها ممحي⁽⁹⁾ حيث تشير إلى مؤسسه وتاريخه، هذا حسب basset الذي يعيده إلى يوسف بن تاشفين⁽¹⁰⁾ إعتمادا في ذلك على الألقاب وبعض الحروف البارزة وذلك سنة 474هـ/1081م (أي فترة حكم يوسف بن تاشفين على الجزء الشرقي من المغرب الأوسط)وقد عرف الجامع عدة تجديدات منها ما هو مسجل تاريخه كما هو الحال عليه في المئذنة التي أضيفت في العهد الزياني سنة 749هـ-1349م، و منها ما لا يوجد له أثر لمشيده كبعض الدعامات في البائكة المتطرفة الجنوبية الغربية وكذا الجزء الذي يلي الصحن مباشرة من الناحية الشمالية بالاضافة إلى المحراب الذي عرف هو الآخر تجديدات، فعلى الرغم من هذا وذاك إلا أن الجامع لا يزال يحافظ على تخطيطه الأصلي⁽¹¹⁾ إذ له مساحة مربعة تلي المحراب مشكلة من ثلاثة عقود وفتحة، ويظهر من ذلك أن هذه المساحة كانت تعلوها قبة في العصر المرابطي ثم أزيلت بعد ذلك.

3- الجامع الكبير بالعاصمة:

- الجانب التاريخي: هناك نقيشتان تسجلان تاريخ الجامع، النقيشة 1: كتبت على المنبر الخشبي المحفوظ اليوم بالمتحف الوطني للآثار القديمة بالعاصمة ونصها كالتالي: « بسم الله الرحمن الرحيم أتم هذا المنبر في أول شهر رجب من سنة تسعين وأربعمائة. ... »

هذه التي يعتقد أنها صنعت في الفترة المحددة ب 490هـ/1096م، والتي توحى أن الجامع شيد في هذه الفترة أثناء حكم يوسف بن تاشفين⁽¹²⁾.

والنقيشة 2 : كتبت على لوح من الرخام الأبيض ثبت على حائط قرب مدخل المئذنة بقاعة الصلاة ونصها كالتالي:« بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد لما تمم أمير المسلمين أبو تاشفين أيده الله ونصره منار الجزائر في مدة أولها يوم الأحد السابع عشر من ذي القعدة من عام اثنين وعشرين وسبعمائة وكان تمامها في كمالها في غرة رجب عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة ناد المنار المذكور بلسان حاله الحالي: أي منار حاله الحسن كحالي أقام أمير المسلمين تفاحا كساني بها حسنا وتمم بنياني وقابلني بدر السماء وقال لي عليك سلامي أيها القمر الثاني فلا منظر يسبي نفوسا كمنظري ألا فانظروا حسني وبهجة تيجاني فزاد نصر الله حول لوائه رفيقا له تال وجيشا له ثاني.»

هذه التي توضح أن المئذنة شيدت بأمر من السلطان أبو تاشفين في حدود، 723هـ/1324م ومن خلال نص لابن مرزوق، يبين فيه أنها تحمل بصمات مرينية، لكن ما يؤسف هنا هو إنذار الدلائل لهذا، خلال الفترة الاستعمارية أين فقدت المئذنة خصائصها الاثرية.

ب- تنميط المساجد المرابطية:

1- موقع المعلم وشكله: إن المتأمل لمواقع هذه المساجد وسط النسيج العمراني للمدينة بالقرب من المحطات التجارية، يدرك ان إختيار مواضعها لم يكن عشوائيا وإنما كان بعد تدقيق وتمعن وذلك بغرض المحافظة على المساوات والإحترام بين مختلف طبقات المجتمع، فالعينات المدروسة نجدها

كلها في أحياء قديمة قريبة من الأماكن التي تعج بالحركة التجارية الدووية، إضافة إلى أشكالها، حيث نجد الجامع الكبير بتلمسان بسيط في شكله الخارجي، عبارة عن مركب مستطيل الشكل ما يميزه تلك المئذنة الزاوية المربعة، في حين ما يميز الجامع الكبير بندرومة من بعيد هو منظره المستطيل والمئذنة أما جامع الكبير بالجزائر العاصمة فيظهر من الخارج بشكل مستطيل كبير الحجم.

2- الدراسة التحليلية للمخططات:

1- بيوت الصلاة: تتميز بيوت صلاة المساجد المرابطية في الجزائر بإتخاذها المسقط المستطيل أو المسقط الغير المنتظم إلا تلك التي شهدت تجديدات وترميمات⁽¹³⁾، بالإضافة إلى الخاصية التي ميزتها عن سابقتها إذ أن عرضها أكثر من عمقها (بالجهة الشرقية)، هذا لأن المرابطين تحكمو في حجم المبنى وغيره، والجدول التالي يبين ذلك.

2- البلاطات والأساكيب: إن مجموع الأساكيب الموازية لجدار القبلة تتراوح ما بين إثنين حتى ستة في المساجد المرابطية وهي تختلف في مقاساتها من مسجد إلى آخر، بينما البلاطات العمودية على جدار القبلة⁽¹⁴⁾ فيصل عددها إلى حوالي أربعة عشرة بلاطة .

3- العقود: باعتبارها عنصر معماري مقوس يعتمد على نقطتي إرتكاز، يشكل عادة فتحات البناء أو يحيط بها، وقد اخذ اشكال كثيرة⁽¹⁵⁾، ومحددة في كل نمط معماري، لتشمل العقد الحدوي والمنكسر والنصف الدائري المتجاوز وخاصة المفصص، بالعمارة المرابطية، وهذا ما يتجلى في نماذج دراستنا، إذ نجد العقد الحدوي في كل النماذج بقاعات الصلاة، نفس الشيء بالنسبة للعقد المنكسر الذي نجده هو أيضا بنماذج الدراسة خاصة بالمدخل والواجهتين الجانبيتين بالجامع الكبير بتلمسان في حين نجد العقد النصف الدائري المتجاوز الذي ينحصر وجوده في الجامع الكبير بتلمسان، أما النوع الأخير من هذه العقود وهو العقد المفصص الموجود في نموذجين فقط (الجامع الكبير بتلمسان والعاصمة) ففي النموذج الأول نجده بسبعة وتسعة وعشرة فصوص، وبخمس عشرة فص في الجامع الكبير بالعاصمة (13 فص كبير وفصين صغيرين يحيطان بالفص المركزي، و خمسة وعشرون أخرى متناوبة -صغيرة وكبيرة-):

4- الأعمدة:

قد خطت المساجد المرابطية وفق نظام الأعمدة المختلفة، من المستطيلة، التي نجدها تتوسط قاعة صلاة الجامع الكبير بتلمسان وعددها ثمانية، وإثنان يكتنفان المحراب كما أنها تتوزع على قاعة صلاة الجامع الكبير بالعاصمة، والمتقاطعة بكل النماذج وكذا المربعة التي نجدها بنموذج واحد (الجامع الكبير بندرومة)، فالمشطورة من جهتين بكل النماذج على مستوى الصحن خاصة.

5- المحاريب: قد إتخذ المحراب عند المرابطين شكل موحد (سداسي الأضلاع) لكن لم يبقى من هذا النموذج إلا محراب الجامع الكبير بمدينة تلمسان الذي نستحضر من خلاله أصل المحاريب المرابطية المتوج بعقد نصف دائري متجاوز.

6- القباب:

نجد منها ما تعلو المحراب ومنها ما تتوسط بيت الصلاة، وهي من طراز القباب المضلعة.

7- التسقيف: قد حافظ المرابطين على الطرق و النظم التقليدية في التسقيف حيث أضحى أكثر مقاومة للثقل، وهو متناسق و متجانس، فهي أسقف خشبية جملونية الشكل من الداخل (لم يتبقى منها الا القليل)، اما خارجيا فهي مغطاة بسقف مزدوج من القرميد.

8- الصحن : وهو المساحة المكشوفة التي تترك في وسط أو آخر مبني المسجد للإضاءة وتهوية وحدات المبنى الداخلية،وقد أطلق على هذه المساحة المكشوفة عدة مصطلحات من أشهرها الصحن وهو مصطلح متعارف عليه في غالبية الأقطار الإسلامية قديما وحديثا، وله مرادفات أخرى منها الساحة والفناء والرحبة والباحة.

ففي الجامع الكبير بتلمسان نجده يلي قاعة الصلاة، تصل مساحته حوالي 9.24م، مبلط بمربعات كبيرة من الرخام يتوسطه حوضان أحدهما مستطيل الشكل والثاني دائري، به مصاطب رخامية، مغطى بسقف جملوني الشكل، ويحتوي بلاطتين تتوسطهما مئذنة الجامع، أما من الجهة الشرقية والغربية فتحيط به مجنبتان تشتمل الأولى على أربعة بلاطات والثانية على ثلاثة.

أما لجامع الكبير بندرومة فصحنه مكشوف تصل مساحته ألى حوالي 9.24م، محاط بأربعة أروقة أكبرها رواق القبلة أو قاعة الصلاة وعلى الجانبين رواقين متماثلين، وهو مستطيل الشكل يمتد من الشرق إلى الغرب.

بينما نجده في الجامع الكبير بالعاصمة مستطيل الشكل مكشوف بمساحة 7.87م يتوسطه حوض مربع الشكل.

9- المداخل : للمساجد المرابطية مجموعة من المداخل موزعة على الواجهة الرئيسية فمن حيث تخطيطها تبدو متأثرة ببعض الأساليب القديمة التي إنتقلت عن طريق الأندلس حيث يشتمل كل من:

* مدخل الجامع الكبير بتلمسان (02)

واحد مستحدث بالواجهة الشرقية يفضي مباشرة من الشارع الى بيت الصلاة، ويشكل هذا الرواق الواجهة الرئيسية للجامع، ومدخل آخر داخلي يؤدي لبيت الصلاة وهذا المدخل معقود بعقد الحدوي المفصص.

مدخل الجامع الكبير بندرومة (03)

أحدها الى يسار المحراب في مقابل البلاطة ما قبل الاخيرة، واخر في الركن الشمالي الغربي والثالثة بجانب المئذنة في الركن الشمالي الشرقي.

مدخل الجامع الكبير بالعاصمة (03)

واحد رئيسي، ومدخلان جنبيان.

10- المآذن: تميزت المآذن التي أضيفت للمساجد الجامعة المرابطية في الفترة الزيانية، ذلك

أن المرابطين لم يشيدوا مآذن نظرا لطبيعتهم المحافظة، هذا أن موقع مساجدهم كان بمركز النسيج العمراني، والمئذنة في إعتبارهم انها برج للتعدي على الحرمات (المنازل المجاورة)، فهي زيانية التشييد، ولذلك قد تغيرت مواقعها من زوايا قاعة الصلاة الى زوايا الصحن وكذا مقاساتها من جامع الى اخر:

11- العناصر الزخرفية: لقد تأثرت العناصر الزخرفية بالجزائر خلال الفترة المرابطية بمؤثرات خارجية وأخرى داخلية حاول الفنان المغاربي من خلالها الجمع بين العديد من الاساليب الفنية التي وصلت إليه بعدة طرق:

- خلاصة القول:

بعد هذه الدراسة المقارنة نستنتج أنه على الرغم من أنها تعود للفترة المرابطية إلا أننا نلمس وجود العناصر المعمارية والزخرفية (القديمة)، ما يدل على إستمرارية الفنون السابقة للفترة المرابطية (الزيرية والحمادية، الاغلبية، والمشرقية)، وذلك من خلال:

- شكل المحاريب التي اضحت مضلعة بخمسة اضلاع خلافا لمحاريب الفترة الموحدية التي كانت تتخذ شكل نصف دائري، والعقود النصف الدائرية المتجاوزة والمفصصة التيجان المركبة، المشربيات الممييزة لعماائر المغرب الإسلامي (المرابطين).

- القباب التي تتقدم والتي تعلو المحاريب و ثرائها بالزخارف الجصية من مقرنصات خاصة تلك التي ميزت جامع القروين والكتابية (الخط الاندلسي والكوفي) والهندسية التي نجدها قليلة مقارنة بالنباتية وهي تتمثل في النجوم، والمربعات و

- اعتمدت المواضيع الزخرفية على الأشكال الهندسية والأفاريز الكتابية التي إعتمدت بشكل رئيسي على الخط الكوفي .

- اما بالنسبة للزخرفة النباتية فقد بلغت أهمية كبيرة مقارنة بالفترات السابقة، حيث نجد المراوح النخيلية والورود والسيقان النباتية والكيان الصنوبرية..

- استخدام الفسيفساء الخزفية في الزخرفة على شكل لوحات في واجهات المباني ، مع استمرار الزخرفة بالنقش على الجص ولقد بلغت النقوش الجصية أرقى مستوى لها في العمارة المرابطية.

- الدعامات التي اختلفت اشكالها حسب عدد العقود المسندة عليها

قائمة المراجع

1- W et G. Marçais, Les Monument Arabes de Tlemcen, Paris, 1986, p : 142.

2- George Marçais. Les villes d'art célèbres Tlemcen. Ed du tell Algérie. 2003. p : 19.

3- يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج6، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية، 1980، ص: 189، 188.

4- Rachid Bourouiba. L'art religieux musulman en Algérie SIVED Alger.1981.p : 107.

5- حكيم بن يلس، العناصر المعمارية وظيفتها وزخرفتها في مساجد تلمسان ما بين القرنين 6-8هـ / 12-14م، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2003، ص:8.

6- G et W Marçais. Op. cit. p : 142143-.

7- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان مقتطف من نظم تآدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق محمود بوعيادة، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1985، ص: 210.
8- يحي بن خلدون، مصدر سابق، ص: 114, 115.
بلحاج طرشاوي، المآذن الزيانية والمرينية في تلمسان دراسة تاريخية وفنية، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، تلمسان، 2003، ص: 57.

10- René Basset : Nedroma et les traras. P : 22 ,23

11- رشيد بورويبة، الكتابات الأثرية: ص: 54.
12- يحي بوعزيز، المساجد العتيقة بالغرب الجزائري، الجزائر، ص: 209.
13- محمد الطيب عقاب، لمحات عن العمارة والفنون الاسلامية في الجزائر، الجزائر، 1990، ص. 73.
14- مبارك بوطارن، العمائر الدينية في المغرب الاوسط من القرن السادس حتى نهاية القرن الثامن الهجري، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والاثار المصرية والاسلامية، جامعة الاسكندرية، 1991، ص: 70.
15- غالب عبد الرحيم، موسوعة العمارة الاسلامية، ط1، جروس برس، بيروت، 1408هـ/1988، ص: 275.